Endülüs'te Açığa Çıkma ve Gizlenme Arasında Feminizm[*]

Ahmad OMAR

Dr. Öğr. Üyesi, İstanbul Üniversitesi,
Eğitim Fakültesi, Yabancı Diller Eğitimi Bölümü,
Arap Dili Eğitimi Anabilim Dalı.
ahmad_ali_omar@hotmail.com
https://orcid.org/0000-0002-5208-0466

ÖZ

Araştırma, Endülüs'teki feminist duygunun, sosyal, politik ve dini örüntünün arkasında gizlenmek ile zevk ve özgürlüklerle dolu Endülüs ortamına uygun duygusal ifade akışı arasındaki çalışmayı ele almaktadır. Özellikle Endülüs şiirindeki feminizm varoşlarda kalmayarak, ahlâkî ve sanatsal icraatlarla gazel ve anlatım alanlarını kasıp kavurarak, duygu iletim mekanizmalarındaki farklılaşmaya katkıda bulunmuştur. Bir yanda geçerliliği olan egemen tarza paralel iletim, diğer tarafta ise buna isyan eden başka bir yöntem. Araştırma ayrıca, başlangıçta açığa çıkma veya toplumdan kaçıp tek başına yaşama arasındaki Endülüs feminizminin duygusal farklılaşmasının yönlerini ve yeni bir kadın pozisyonu yoluyla Endülüs feminist kimliğinin oluşumuna kadarki süreci ele aldı.

Anahtar Kelimeler: *Endülüs Feminizmi, Şair Kadınlar, Gazel, Endülüs Toplumu, Feminist Duygu*.

Feminist Emotions in Andalusia: Between Excess and Absenteeism

ABSTRACT

This research discusses the feminist empathy in Andalusia as hiding back of social, religious and political rhythm, as emotional expression to be suitable to Andalusia environment that full of free modes and interest, especially the feminism of Andalusia poets do not stay in suburbs but it is in flatters, descriptions and expressions by artistic and spiritual that contributes in different ways for emotional export as the common and other rebelled. It also treats Andalusia emotional feminist in details or isolation and floating as a result to have Andalusia feminist identity by new position of the woman.

Keywords: *Andalusia feminism, poets, flattering, Andalusia society, the feminist empathy*.

[*] Makale Geliş Tarihi / Received: 20.10.2020
Makale Kabul Tarihi / Accepted: 01.11.2020

العاطفةُ النِّسْوِيَّةُ في الأندلس بين التدفُّق والتواري

د. أحمد عمر

ملخص البحث:
تناول البحث دراسة العاطفة النسوية في الأندلس، بين التواري خلف النسق الاجتماعي والسياسي والديني، وبين التدفق في التعبير العاطفي ملاءمةً للبيئة الأندلسية الحافلة بألوان الملذات والحريات، ولاسيما أن النسويةَ عند الشواعر الأندلسيات لم تبق في الأطراف، بل اقتحمت ميادين الغزل والوصف والتعبير، عبر إجراءات معنوية وفنية، أسهمت في اختلاف آليات التصدير العاطفي، بين تصدير يحذو حذو النمط الممكن السائد، وآخر يتمرد عليه، كما عالج البحث جوانب التمايز العاطفي للنسوية الأندلسية، ولاسيما في التدفق المغرق في المباشرة، أو المُرَاوِح بين التدفق والانزواء، إلى أن تشكلت الهوية النسوية الأندلسية عبر تموضع جديد للمرأة.

الكلمات المفتاحية: النسوية الأندلسية، الشواعر، الغزل، المجتمع الأندلسي، العاطفة النسوية.

تميزت الأدبيَّة الأندلسية بسمات وخصائص ذات بنية منسجمة مع الإطار الجديد للتشكلات الاجتماعية والسياسية والدينية، ولم تكن المرأة الأندلسية بمعزل عن هذا التأثر، فقد أعيد تشكل سكان الأندلس تشكلاً جديداً بعد الفتح الإسلامي، ذلك أن العناصر الجديدة تألفت من العرب والبربر والإسبان، والقسم الأخير كان على نوعين، النوع الذي اندمج من البوابة الدينية، فدخل في دين الجماعة الوافدة، وقسم بقي على دينه، إلا أن النوعين قد تعرّب، واتخذ العربيةَ لغةَ أدبه المميز في الأندلس، مثل اليهود، والصقالبة، وقد استطاعت تلك البلاد أن تصهر هذه العناصر كلها لتكوّن منها صيغة أندلسية أسهمت في بناء الدولة الأندلسية وإظهار وجوهها الحضارية للعالم[1].

إن الحضارة حين تشع، تبسط خيوطَ النور فيها على كل ما يرتبط بالفاعلية الحيوية للمجتمع، وبما أن الأندلس أرض الحضارة وبلاد الإبداع، نجد المرأة الأندلسية قد تمتعت بحرية كبيرة، إذ شاركت الرجل في نظم الشعر، كما شاركته في التأقلم الفاعل مع معطيات الحياة العلمية والسياسية والدينية، فكان لها ظل يمشي في ركابها، يميز هويتها عن أقرانها في الجزء الشرقي من الدولة الكبرى، فالشواهد كلها تدل على أن المرأة في المجتمع الديني كانت أكثر قدرة على الحركة من قرينتها في مجتمع المشرق[2]، حركة لم تبق في الأطراف، بل تغلغلت إلى الداخل، فصدرت عنها في أدبها عاطفة، إن شئت قل إنها عاطفتها، وإن شئت قل إنها عاطفة الرجل في صوتها، بيد أن هذه العواطف النسوية لم تكن في تشكلاتها على سوية واحدة في الحرارة والاتساع والتدفق، فبعضها كذلك، وغيرها كثير مما توارى خلف أسورة، ما زالت قائمةً في المجتمع الجديد.

إن أجلى ما تكون عليه العاطفة البشرية حالَ لوعةِ الفقد ولوعة الحب، إلا أنه في الفقد، لا تنزوي النسوية الأدبية فيه، ذاك أنه واضح المعالم والاتجاه واللبنات اللغوية، فلا مجال فيه لدورات الفكر واللغة، لا أسباب هناك قاهرة، لتحمل المرأةُ نفسَها على الانزواء في المعيارية الثابتة لأنساق المجتمع فيما يقال ويُتبَّعَ.

أما اللوعة الثانية فميدان العاطفة عند البشر، ولاسيما عند النساء، النساء الأندلسيات على وجه الدقة، فعلى الرغم من نزول المرأة إلى هذا الميدان بكل ثقة، وأنها فرضت شعرها وأدبها على واقع اجتماعي فيه من الجديد شيء، وفيه من القديم أشياء، كانت عبقريتها الأندلسية، التي مشت على حبل دقيق، تُمسك بعصا من التواري أو التدفق، توازن بها، كي لا تقع، فقد تدْخُل إلى عالم الرجل تتفحصه وتدرس مكامن الممكن، ومواطن الإثارة فيه لتنطلق بلسانها منه، فالمرأة تستطيع أن ترسم للرجل صورة في شعرها، وهذه الصورة تخضع هي الأخرى لإرادتها ورغبتها، وتتعلق بمشاعرها وأحاسيسها، ولم تتجسد فيها تلك المثالية التي رسمها الرجل للمرأة، بل كانت أغلب

[1] الداية، محمد رضوان، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000، ص21

[2] الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 2000، ص46

صورها تنحو نحو الواقعية، إلا أن بعضها يخضع لعواطف المرأة ومشاعرها المتغيرة التي لا تقف عند حدود معينة[1].

وما ميّز العاطفة النسوية عند المرأة الأندلسية، أنها عاطفة ذكية، تدرك الأبعاد، وتلاحظ السياق، وترسم الخطوط، حتى في تدفقها، وتجاوزها الخطوط المرسومة، إنها تعلم أنه تدفق يرضي الرجل، ويرضيها كذلك، لتحقق غايتين في آنٍ من عاطفة "فالمرأة حين تنظر إلى الرجل فإنها تدرك ما يريد، وتعرف ما يخفي وما يعلن، وذلك من خلال إحساسها بمكنون ذاته، وتعدد أحواله المختلفة، وتعي أسلوب تعامله معها، بل تملك القدرة على التمييز بين الرجال، الرجل الجاد في حياته، والرجل غير الجاد فيها، وحين يطلب منها الاختيار، فإنها تحرص على أن تختار ما تريد[2].

دخلت العاطفة النسوية مبكراً إلى الأندلس، مع دخول المرأة، ذاك أنها عاطفة وإحساس، قبل أن تكون عقلاً، إنها قلب، قبل أن تكون فكراً، وبما أنها كذلك، وبما أنها حلت في مجتمع يعينها على تطوير ذلك، إننا سنرى اختلافاً بين منسوب التدفق والتواري، وكل ذلك في سيرورة التطور الاجتماعي الذي سيتجه نحو مزيد من الانفتاح والامتزاج مع المرأة، لكنه التطور الذي يمسك بالبدايات، بالوجدانية التي تخاطب العاطفة وتلهب المشاعر، تلك التي وجدنا طلائعها مع الشاعرة العجفاء، إذ كانت أول شاعرة بالأندلس من الجواري الوافدات من المشرق، وكانت تتقن ما قد تعودت عليه القيان من شعر وجداني يخاطب العاطفة[3]، العاطفة التي ستتخذ بنية نسوية لها طابعها الخاص في هذا الصقع الأندلسي.

لم يُتَح للعاطفة النسويةِ التجديدُ الذي تسارع في جوانب الحياة الأخرى، وإن شئت الدقة فقد كانت متاحة في أكثرها للجواري، كقمر، الجارية التي عاشت في إشبيلية، في قصر سيدها إبراهيم بن الحجاج، وقد جمعت أدباً وظرفاً ورواية وحفظاً، وكذلك عائشة بنت أحمد القرطبية، ومن يتابع صفاتها لا يملك إلا الإعجاب بها، شاعرة قديرة، عَفَّة جريئة أديبة، كانت تمدح الملوك في غير ما خنوع أو مذلة، وكانت ترتجل الشعر ارتجالاً، وماتت عذراء لم تتزوج[4]، إلا أننا ما نلبث أن نشاهد محاولات مكثفة لسيرورة التطور النسوي، عند بعض الشخصيات ذات الملامح القوية، من اللواتي يأنفن الزواج، ولعلّي أرجّح أن تلك الرغبة عند إحداهن، إنما هي رغبة نابعة منها، من تلك الصفات التي اتصفت بها فأرادت أن توفّيها حقها في القوة، مما يجعل الباب أوسع للولوج إلى العواطف، بوضوح تختلف درجاته بحسب قربه من مركز التواري أو التدفق.

1. التمايز العاطفي للنسوية الأندلسية:

لم تَشقَّ النسويةُ في بث عواطفها طريقاً غيرَ وعرة، تلك التي نجدها عد الرجل، تخوّله أن يمشي فيها ما شاء له، فالعاطفة التي تريد أن تتشكل في قوالب غير أدبية، لا

[1] الربيعي، أحمد حاجم، صورة الرجل في شعر المرأة الأندلسية، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2013، ص7

[2] المصدر نفسه، ص7

[3] الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص119-120

[4] الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص132

يضمن لها التاريخ مقعداً في رحلته، إنه يحتفظ بتلك العواطف التي تعلق بسفينة الأدب، ولم تكن تلك السفينة عادلة في المقاعد المخصصة للنساء، لهن، بل كانت لهم، ولا سيما سفينة الشعر، فالشعر "ميدان الرجال، يجيدون فيه صولاتهم وجولاتهم الأدبية، ويتحاورون فيه ويتساجلون، ويتبارون بنقائضهم ومعارضاتهم في ميادين الشعر"[1]، والمرأة حين تدخل هذا الميدان فإنها أمام خيارين، إما أن تحمل سلاح الرجل نفسه، وإما أن تحمل سلاحها الخاص بها، المصنوع لأجلها، وهذا ما يفسر لنا سبب اختيار النقاد لبعض أشعار النساء في المراثي، ذلك أنهم كانوا يرونه ألصق الأسلحة بها، أما غير ذلك فيكاد يكون حكراً على الرجال، وهو ما عبّرت عنه الشاعرة سارة الحلبية:

مـــا تصـــل الأنثـــى بتقصـــيرها لأن تجـــاري ذكـــراً مـــاهراً[2]

إلا أن النسوية الأندلسية، لم تقبل بهذا، ساعدهن على ذلك عوامل التحرر التي أتيحت لهن، فأفسحن لشعرهن مكاناً رحيباً وفرضن وجودهن بصورة لم تحدث للقلة من زميلاتهن في المشرق، على أنهن لم يسهمن في كل فنون الشعر وموضوعاته[3]، ولم يقتصر هذا التأثير في نسوة الأندلس وحدهن، بل امتد إلى الأدب كله، فمعانيهم في الأدب عامة واضحة جلية، بعيدة عن "تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء، لقلة المشتغلين منهم بالفلسفة، واضطهاد علومها في الأندلس، وكثيراً ما كان شعر الأندلس يطرق المعاني المعروفة، ولكنه بما يولد ويركب ويغرب ويبدع في الصناعة"[4] جعل النقاد في اتجاهين، اتجاه أقر بالهوية الأندلسية لهم، واتجاه رآها تجديدية أسلوبية، إلا أنها في العواطف النسوية الأندلسية، لاشك أنها على قلتها قد اختلفت عن مثيلاتها في الشرق، ومنهن ولادة بنت المستكفي، فابن بسام حين يورد ذكرها إنما يذكرها بأنها مَنْ ذكرها أبو الوليد ابن زيدون، فالمجتمع مازال يرى في العاطفة النسوية تبعية للرجل، وإنه لولا ابن زيدون لم تذكر ولادة.

إن ولادة اختطت عاطفتها في ميدان الرجال، وبزّت كثيراً منهم، وكانت من اللواتي تدفقت عواطفها، أو أرادت لها أن تظهر بذلك، للعوامل الكيدية التي تطلبت مواقف نسوية عالية الحبك والإتقان.

1. 1 تمايز التدفق الملتهب:

لم تكن العوامل الاجتماعية بمنأى عن المسببات التي تقتضي بزوغ التدفق، ولاسيما حين تتعلق الأمور بكينونة الأنثى، في حبها، وحب إظهار جمالها، وغيرتها، وشدة سخطها من اللامبالاة السلوكية تجاهها، سواء أكانت ظاهرة أو حقيقية، فولّادة وإن حاول ابن بسام أن يشير إليها بأنها التي ذكرها أبو الوليد ابن زيدون، إلا أن عاطفتها النسوية وقدرتها الأدبية لا تخفى، ولا تحتاج إلى معضّد مسعف لحمل ظلالها الأدبية على محمل التاريخ، فقد كانت في نساء زمانها "واحدة أقرانها، حضور شاهد وحرارة

[1] صورة الرجل في شعر المرأة الأندلسية، ص11

[2] ابن الخطيب، لسان الدين، محمد بن عبد الله (ت 776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1976، ج3، ص403

[3] الأدب الأندلسي، ص116

[4] السويفي، مصطفى، تاريخ الأدب الأندلسي، دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع، ص312

أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها"[1]، وبعد أن يورد ابن بسام صفاتها المسببة للتدفق العاطفي، يورد لنا من جديد أنها تدفقات لا تُرضي النظام الاجتماعي السائد آنذاك "على أنها - سمح الله لها وتغمد زللها - اطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها، كتبت – زعموا - على أحد عاتقي ثوبها:

أنـــا والله أصـــلح للمعـــالي وأمشـــي مشـــيتي وأتيـــه تيهـــاً

وكتبت على الآخر:

وأمكّـن عاشـقي مـن صـحن وأعطـي قبلتـي مـن يشـتهيها[2]

إن ولادة منهمكة في النسوية، ولا يُخرجها من منسوب التدفق الصريح قول زعموا، فإن ما ورد إلينا من صفاتٍ نقلتْها كتبُ التراث، تدل على امرأة تزاحم الرجل، ولا ترضى منه انفراداً في أي ميدان، إنها عواطف لا يعنينا منها أن تكون صادقة أو غير صادقة، حقيقية كانت أو فنية، مما أسهب الباحثون في تتبع تفاصيلها ليجيبوا عن هذه الأسئلة، إنما وجه الدقة في أنها قالت ذلك، في أنها كانت تبث عواطف نسوية لا حجاب لها يقيها من نظرات المجتمع وفتكاته، فقد كتبت إلى ابن زيدون:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فـإني رأيـت الليـل أكـتم للسـر

وبي منك ما لو كان بالبدر ما وبالليـل مـا أدجـى وبـالنجم لـم

ولم تكن هذه العواطف النسوية المتدفقة محضَ اقتدار بياني، أو اضطرار فني، بل كانت عواطف متجلية عن وقائع، ومتمخضة عن أحداث، وهو ما أثبته ابن زيدون إذ قال: فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، أقبلتْ بقد كالقضيب، وردف كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل على ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبج...فلما شببنا نارها، وأدركت فينا ثارها، باح كل منا بحبه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور"[4]، فالتدفق الملتهب لم يكن ركيزة فنية لبث اللواعج، بل كان في قسم منه راشحاً عن واقع، لا يجدون حرجاً من البوح به.

1. 2 اقتضاء التدفق:

لم تكن العوامل التطورية للتدفق العاطفي النسوي بمعزل عن عوامل عديدة، أسهمت في مجملها في اقتضاء التدفق العاطفي عند المرأة الأندلسية؛ إذ اشتجرت النسوية عندها مع المفاهيم المعاصرة، في كثير منها، مما يجعل البحث عن عوامل اقتضاء التدفق محل اهتمام، فالدكتور عبد المجيد عابدين يرى أن المرأة في المجتمع الأندلسي قد

[1] الشنتريني، علي بن بسام، (ت 542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997، مج1، ص 429

[2] المصدر نفسه، ص429-430

[3] المصدر نفسه، ص430

[4] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مج1، ص430

تمتعت بقسط وفير من الحرية والنفوذ لم تعرفها بغداد في أوج ازدهارها، وأن ذلك يرجع إلى سببين كما نقل ذلك سعد بوفلاقة: يعود الأول إلى احتكاك المرأة هناك بالشعوب الأوربية التي أثرت في ذلك المجتمع العربي الناشئ ببعض خصائصها، وذلك عندما قويت الصلات بين العرب ونصارى الأندلس بحكم المصاهرة أو المجاورة أو التحالف أو غير ذلك.

والسبب الثاني في اختلاط العرب في المجتمع الأندلسي بالبربر، وهم سكان شمال أفريقيا القدامى؛ إذ كان للمرأة في مجتمعاتهم مكانةٌ تختلف عن مكانتها في المجتمع العربي، فالحاميون اتخذوا الأم رأس الأسرة، فكان أفراد الأسرة ينتسبون إليها، وليس إلى الأب، ومثل هذا النظام بقيت آثاره في تلك الشعوب[1].

وقد رأى بعض المستشرقين أن ذلك راجع إلى رقي الحضارة التي عرفتها الأندلس، فوضع المرأة هناك كان أكثر تحرراً عما كان عليه في بقية الشعوب الإسلامية الأخرى فأسهمت المرأة بجهدها في كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها، وليس قليل عدد أولئك الذين بلغن شهرة واسعة في ظل حضارة راقية لم تعرفها المرأة في المشرق الإسلامي[2]

ولا يمنع - إضافةً إلى ما تقدم - أن تكون العوامل السياسية وتقلباتها وسرعة تبدلاتها، وما ترتبط فيه آثارها بنفوس المجتمع ذات علاقة واضحة في ظهور التمرد النسوي المتدفق، ولاسيما مع ولادة التي قتل والدها، فإن كان السبيل إلى الانقضاض على السلطة منعدماً، فلا أقل من إحراجها أمام الرعية بما يوحي انحداراً في السلوك والقول، كما أن المرأة في الأندلس حبُيت بالدلال وبساطة المعيشة، حتى صارت كأنها غير متكلفة، فالخصومات السياسية والاعتراك الفكري بقي للرجال، يؤثر في طبائع القرائح، أما البيوت فشأن آخر.

ومثال ذلك ما عبرت عنه الشاعرة أم الكرم، فقد عشقت خادمها وفتاها المشهور بالسمار:

يا معشر الناس ألا فاعجبوا ... مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل ببدر الدجى ... من أفقه العلوي للترب
حسبي بمن أهواه لو أنه ... فارقني تابعه قلبي

وقولها:

ألا ليت شعري هل سبيل ... يُنَزَّه عنها سمعُ كلِّ مراقب
ويا عجباً أشتاق خلوةَ من غدا ... ومثواه ما بين الحشا

[1] عابدين، عبد المجيد، دراسة تحليلية نقدية لنماذج من الشعر الأندلسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص104

[2] مكي، الطاهر أحمد، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، دار المعارف، مصر، 1981، ص248، نقلاً عن رسالة الشعر النسوي الأندلسي في القرن الخامس الهجري، سعد بوفلاقة، جامعة عنابة، 1986، ص14

[3] الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، مصر، 1970، ص130

فمقتضياتُ التدفق مقتضياتٌ منطقية، فآثار الحياة ما زالت تلقي بظلالها على أفياء تلك المنازل، وأدراج تلك المدن، تُشعّ فيها أجواءً من الانفتاح والتدفق المحظور بدرجاته المختلفة، كما أن العوامل السياسية ما زالت تحرك المجتمع، تهزه عنيفاً، لتهتزَّ الوجدانات والعواطف مع تلك الأجواء، يضاف إلى ذلك بواعث نفسية، وبحملها يستطيع الناقد أن يلتقط دقائق الإشارات الباعثة على تلك التدفقات، فتجربة الشاعر ليست بمعزل عن تأثير طبيعة بيئته التي يعيش فيها، ولاسيما طبيعة أرض الأندلس، فإن طبيعتها وجمالها قد أثّر في التجربة الشعرية للمرأة الأندلسية، وقد ترددت الصور والأخيلة المنتزعة من الطبيعة ومظاهرها في أشعار المرأة الأندلسية[1]، وبذلك نجد أن عوامل عديدة اشتركت في تغذية العواطف النسوية ذات الاتجاه المخالف للسائد النمطي في المجتمع، وإن اختلفت حدوده وتباياناته وظلاله، إلا أنها ظلال نسوية، آليات المحاكمة فيها أدق وأعمق منها عند الرجل.

2. الانزواء العاطفي في النسق المألوف:

لم يكن المجتمع الأندلسي من المجتمعات التي لا حدود قيمية لها، إنما كانت مساحة الحرية الفردية فيه أوسع منها في الشرق، إنه ضمن الإطار الذي ما زالت آليات المحاسبة فيه قائمة، ولاسيما أن معايير الحرية النسوية في انبثاق عاطفتها تتبع في كثير من فضاءاتها إلى النسق الذاتي للجماعات الأندلسية وعوائلها، إلا أن ذلك لا يجعل النسق الباعث في احترامها عاملاً من عوامل ترك الانزواء، مما رأيناه عند ولادة وغيرها، واللافت للنظر أن معظم تجليات العواطف النسوية إنما اشتقت طريقها ضمن النمط السائد، والنمط السائد محض انزواء عاطفي للتدفق المباشر، وكانت تجليات الغزل منزاحة بين التدفق والانزواء، بحسب الموقع الاجتماعي للمرأة الأندلسية.

كان الغزل السائد أولى تجليات العواطف النسوية الأندلسية، بل إنه من أكثر الأغراض الحاملة للعاطفة النسوية الخجولة، فوصفت النسويةُ الأندلسية عواطفَها، من شعور الحب واللوعة واللاعج والفراق، وغير ذلك من مقتضيات الحوامل العاطفية للغزل.

والملاحظ كذلك أن هذا الشعر لم يقتصر على الإماء، كما هو الحال في المشرق العربي في اتجاهه العام، بل امتد ليشمل الحرائر، ذلك أن الحرائر تمتعن - إضافة إلى السياق الاجتماعي العام - باحترام الرجل، من خلال اكتسابها العلم في المساجد، ومخالطتها بذلك ضروباً مختلفة من التفكير فيما لو بقيت في منزلها، إضافة إلى تأثير البيئة الأوربية التي عاشت فيها على الطباع والعادات المشرقية، كل ذلك أكسبها خطوة مميزة عن الطريق المشرقي، لكنها بقيت في استمرار العاطفة النسوية تمتح من معاني العواطف، مما يُبقي على مقياس الأنوثة والعفة والدين، بل إنها واعية تمام الوعي لهذه

[1] ابن سعيد، علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ص202، 203

المتطلبات[1] التي شذت في بعض الأنماط المحظورة عند بعض النسويات الأندلسيات، ممن انفرطت عندهن جدران التمايز بينهن وبين الرجال.

2. 1 الانزواء المغرق:

لم تكن الانزواءات عن التدفق المباشر في سوية واحدة، بل انمازت وانزاحت، تبعاً لأنماط المجتمع، وسياقات المرأة وظروفها وارتباطاتها بالمركز الديني المؤثر، الذي ما زال يستقطب مختلف النصوص ويوجهها في إطار الفضيلة وخدمة المجتمع، بناء على القيم الوظيفية التي أتت بها المنظومة الأخلاقية والسياسية للدين.

ولعل أوليات التجلي للانزواء العميق في اختبائه عن المباشرة، ما نراه في العاطفة النسوية المشوبة بالحب، لكنه الحب الذي يكلله الاحتشام، وفي التعبير عن الاتجاه الإيجابي فيمن تحب، إنه التعبير المحاط بأسورة الوقار والحياء والعفة، مما يذكرنا بالذكورية الشعرية في أشعار الغَزِلين العذريين، فكأنهم في رقتهم وحيائهم قد تركوا انطباعات للمثل العليا التي ينبغي على العواطف النسوية أن تنحو اتجاهها في الارتكاز على قوائم الأدب في التعبير، وضمن هذا الإطار المغرق في انزوائه عن المباشرة، تقول أم العلاء بنت يوسف الحجارية البربرية[2]:

كل ما يصدر عنكم حسنُ وبُعلْياكم يُحلّى الزمنُ

تعكُف العين على منظركم وبذكراكم تلذ الأذنُ

من يعش دونكم في عمره فَهْو في نيل الأماني يُغْبَنُ

لم تكن المعاني خالصة للمدح، ولم تكن محصورة في الغزل، بل إنها من فيض العاطفة المنزوية، التي تريد للعاطفة النسوية أن تظهر، لكنه الظهور الذي يتكئ على الأنماط السائدة المقبولة. والحياء الأنثوي يجعل قول الحب والإعراض عنه سواء، بل إن الرجل ليقرأ العواطف النسوية القابعة خلف معاني المدح، يخلصها من شوائب القيود الاجتماعية والأنماط المؤثرة في ضخ العواطف نحو الداخل.

إن العواطف النسوية رابضة بين **لولا**، فلولاها لانبثقت العواطف موَّارة لا تأبه لعرف أو مجتمع، ولكنَّ ما بعد **لولا** باعثٌ مهم من بواعث التصدير إلى الداخل، لكنها تصديرات لا تنصاع كلها، بل ترسخ في الدلالة السياقية ما نتلمس فيه عواطف نسوية خجولة، فالشاعرة أم العلاء نفسها تؤكد هذه الفكرة:

لولا منافرة المدا مة للصبابة والغنا

لعكفت بين كؤوسها وجمعت أسباب المنى[3]

إن التموضع الاجتماعي للمرأة الأندلسية عامل مهم من عوامل الانبعاث نحو الانزواء أو التدفق، ولاسيما في جوانب الحرية والعبودية، فالجواري حين يطرقن هذه المعاني إنما يتحلقن حول حوامل أبعد عن الاتجاه الانزوائي الذي نراه عند الحرائر في

[1] العقيلي، فوزية عبد الله، الرؤية الذاتية في شعر المرأة الأندلسية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، 2000، ص93

[2] المغرب في حلى المغرب، ج2، ص38

[3] المغرب في حلى المغرب، ج2، ص38

بث عواطفهن النسوية، لأن التموضع يسمح بمعطيات يتطلبها النسق الذي هي فيه، يضاف إلى ذلك تموضع آخر غير ذاتي، ويتمثل في المرسَل إليه، الذي تبثه لوعتها وعواطفها النسوية، فإن كان من علية القوم مكانةً وسلطةً فلا شك أن الدلالات ستنزاح عن الانزواء قليلاً لتحل معاني الحب في دلالات التهالك، وإن كان الباعث إلى ذلك رضا المحبوب والخوف من سطوته، فقد كان لزرياب جارية اسمها مُتْعَة، أدّبها وعلمها أحسن أغانيه حتى شبّت، وكانت رائعة الجمال، وفي يوم غنت بين يدي الأمير عبد الرحمن الأوسط، ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وصارت تغنّيه مرة وتسقيه مرة أخرى، فلما فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة، فأبى الأمير إلا التستر، فغنّته:

يـــا مـــن يغطّـــي هـــواه	مـــن ذا يغطـــي النهـــارا
قـــد كنـــتُ أملـــك قلبـــي	حتـــى علقـــتُ فطـــارا
يـــا ويلتـــا أتـــراهُ	لـــي كـــان، أو مســـتعاراً
يـــا بـــأبي قرشـــيّ	خلعـــتُ فيـــه العـــذارا[1]

فالانزواء بقي قائماً، يحفظ عواطفها من المباشرة، لأن عوامل الدفع هنا تشترك فيه اتجاهات عديدة، الحياء، والخوف، والطمع، ولربما كان الحب، إلا أن الحوامل التي حملت عواطفها بقيت في إطار المدح المشوب بالتشوق المصطنع، المحمول على قوائم النمط السائد، من أدب الخطاب ورفعة الدلالات في تمثيل المدلولات العاطفية النسوية.

2. 2 المزاوجة بين التدفق والانزواء:

لم تقتصر العواطف النسوية في تجلياتها على نسق واحد عند شاعرة واحدة، بل تناوبت أنماط التصدير تبعاً لاختلاف عوامل الانبعاث، إلا أن هذا قليل قياساً إلى الاتجاه الشائع عند كل شاعرة أندلسية، مما يدلنا على معطى نسوي معاصر، تختلف فيه المعايير عند النسوية تبعاً لاختلاف موقفها من الشخصية لا الفكرة، فالحبيب المتهالك على حبه وبث لواعج الأشواق إليه، لربما يغدو محل هجاء مقذع، أو كره مستأصل، وإن كان التتبع للعواطف وعراً في التماح آليات الصدق من عدمه، فإن الدلالات لا تتعبنا في ذلك، إذ سرعان ما يعطي انطباعات معكوسة لعاطفة الحب النسوية، فإن تعثر علينا تحديد مصداقيتها فلن يتعثر تحديد اتجاهها المختلف عن ضروب الرقة والشجن.

تعد المراوحة بين التدفق والانزواء من المؤشرات الحقيقية لأحوال العواطف النسوية، ذلك أن الإنسان لا تستقيم أحواله على اتجاه واحد يستمر فيه، إن هذا متعثر في جوانب الفكر واتجاهات العقل، ولاشك أنه في العواطف والشعور الوجداني أدعى إلى التعثر، ولاسيما حين تكون الأحوال نابعة من المرأة وعواطفها وأحوالها المتقلبة، فالمراوحة انعكاس حقيقي للعواطف، لأن الاتجاه الواحد يدل على كبت في أحايين ما، وانبثاق صادق في أحايين أخرى، فالتي تسير في تدفق عاطفي ملتهب، لن نصدّق أن

[1] المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3، ص131

حياتها كلها كذلك، والأمر نفسه في المنزوية، تود ألا تكون هناك **لولا** بعض الأحايين، أما المراوحة فشيء آخر.

تعد عوامل الانبعاث مقترنة بأحوال الشاعرة نفسها وأنساقها الاجتماعية المحيطة، فهي التي تحدد لها درجات العواطف وطرق إظهارها، فمن يرَ أشعار ولادة في ابن زيدون في اتجاهها الانزوائي غير المباشر يُصَبْ بالذهول وهي تمتح من التدفق المباشر لعواطفها، ففي الاتجاه العاطفي المألوف قالت:

ودّع الصبر محبٌّ ودّعك ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطا إذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك

إن يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك[1]

فالعواطف هادئة ممتزجة بمعاني الليل، وقد تتأجج في محور عفيف، لكنّه ذو حرارة صادقة، سبب ذلك الباعث، إذ كان عن فراق وهجرة، فهنا تمثلتْ عواطفَها النسوية خيرَ تمثيل، وأوفت لها حق الإيفاء من التعبير:

ألا هل لنا بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي

وقد كنت أوقات التزاور في أبيت على جمر من الشوق

فكيف وقد أمسيت في حال لقد عجّل المقدور ما كنت أتقي

تمر الليالي لا أرى البين ولا الصبر من رق التشوق

سقى الله أرضاً قد غدت لك بكل سكوب هاطل الوبل[2]

فكل الحوامل جاءت في نسق منزوٍ عن المباشرة الصريحة في تجديد العواطف وآثارها فيها، إنها تمتح من المعجم الدلالي ذي النمط المألوف، لكنها ستغاير، وستتجه إلى التدفق القاسي حين تكون العواطف محل تسلية وإساءة من الرجل:

ولقبت المسدس وهو نعت تفارقك الحياة ولا يفارقْ

فلوطي ومأبون وزان وديوث وقرنان وسارق[3]

فعوامل الانبعاث تتراوح، وعليها، تتراوح العواطف النسوية عند المرأة، ولاسيما إن كان النسق الاجتماعي والسياسي مساعداً على هذا، فالسيدة الأندلسية تعامل حبيبها كما يعاملها، إذ إن الحب عندها لا يعرف الطبقية، ولا تعترف بها[4]، وهذا ما جعلها مؤسسة مبكرة للحركة النسوية التي شقت قواعد التمايز القائمة، إن كان في شقاء المحب، أو كان ذلك في نزق المحبة.

---

1 نفح الطيب، ج4، ص206

2 نفح الطيب، ج4، ص206-207

3 نفح الطيب، ج4، ص205

4 عباسة، محمد، حب الآخر في الشعر الأندلسي والبروفنسي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد الرابع، 2005، ص9 وما بعد.

3. التموضع التبادلي:

درجت سنة الشعر والحياة أن يتهالك الرجل على حب المرأة وأن يبثها أشواقه ولواعجه وأشجانه، وأن يكثر من حديثه عن فرط الصبابة وشدة التعلق وأثر الهجر، لأن الغزلَ، التعبيرُ الأول عن أثر الجمال الأنثوي في النفس، بأسلوب فني بديع، يضاف إليه شيء من نسج خيال الشعراء، إما أن يصور المحب مشاعره أو ما يعانيه من مواجد وأشواق تجاه الحبيب وما يلاقيه من آلام جراء البعد والصد، بما يسمى الغزل العفيف، وإما أن يكون وصفاً دقيقاً لمفاتن أعضاء جسد المرأة وحركتها وحديثها، وهو الغزل الحسي[1]، ولئن احتفظت المصادر ببعض الأشعار التي تعبر عن عواطف المرأة تجاه الحب، فإنها لم تبرح حدود الرغبة في المشاركة في ميدان الشعر، أو حدود تجسيد العواطف في قوالب نمطية، في قليل منها محظورة، أما المرأة في الأندلس، فشيء آخر.

حلت المرأة الأندلسية محلاً سمح لها بأن توجه الأنظار إليها، في أنها قلب، وأنها تحب، وأنها كذلك لا ينبغي أن تكون محل التلقي في الحب والغزل دائماً، أي أن معادلات الحب ستتخذ منحى جديداً تتبدل فيه المواقع إلى حين، تبعاً للمعطيات السياقية لكل امرأة، وما يحيط بها من قيود أو موانع، فالمرأة الأندلسية على وجه الدقة والعموم، امرأة تنعم بالحرية الواسعة، وتشارك في شتى النشاطات الاجتماعية والفكرية، وهذا للمرأة الحرة، ربة البيوت والقصور، أما الجواري فكن على درجة أبعد في هذا التموضع الجديد، لاندماجهن بحياة الرجل وقربهن منه[2].

من هنا نجد أن المرأة - نظراً لتضافر العوامل - قد أقبلت على ميدان الرجل في ضربين، الضرب الشعري، والغزلي منه تحديداً، فأبلت فيه بلاء حسناً، وما يميزها عن العواطف المشرقية أو المعاصرة أو السابقة، أنها كانت عواطف نسوية أشبه بالأغراض التي لابد للشاعرة أن تطرقها في بعض الأشعار، أو أنها كانت لا تبرح الحدود المألوفة للنفثات العاطفية، أما المرأة الأندلسية فقد حلت محل الرجل في التعبير عن مكنونات النفس، واستلهمت إجراءاته الفنية، إذ إنها لا تمسك بشيء إمساكها بما يصدّر عواطفها وأحوالها حين تتاح الظروف، إن شواعر الأندلس على وجه العموم يفصحن عن حبهن وعشقهن لمن أحببن دون خوف أو خجل[3].

3. 1 الارتكاز الفني في التموضع الجديد:

أقبلت الأندلسيات على مواقع الرجل الغزل، وأنهين احتكاره لهذا الموضع المرتبط بالإنسان، فلا فرق فيه بين رجل وامرأة، ولئن كان المجتمع في ارتكازه على معايير المسموح والممنوع أكثر صرامة مع المرأة، إن المرأة الأندلسية استطاعت أن تنهي

---

[1] الربيعي، أحمد حاجم، القصص القرآني في الشعر الأندلسي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001، ص164

[2] السعيد، محمد مجيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، مطابع الرسالة، الكويت، 1980، ص152

[3] شلبي، سعد إسماعيل، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1973، ص122

احتكاره بفنيات غير اصطدامية، وذلك بأخذ إجراءات الرجل الفنية والسبك من خلال أركانها وطرائقها، مع المحافظة على الوفاء للعاطفة النسوية.

وقد يكون للبيئة الأندلسية الأثر الكبير، ليس في الأندلسيات وِلادةً وإقامةً فحسب، ولكن في الأندلسيات اللواتي وفدن من أصقاع أخرى كذلك، ولاسيما الشرق، إذ إن البيئة الأندلسية سرعان ما تضع حمل المجتمع عن ظهور الشواعر، لتبدأ بالتموضع في الحيّز الجديد، الذي ما زال الرجل فيه ممسكاً بالقياد، ومن ذلك ما وصل إلينا من نسويات شعرية عاطفية للشاعرة العجفاء، إذ كانت من الجواري اللواتي وفدن من المشرق على الأندلس، فقد بدأت تتحلل من أسوار الكلمة، والمجتمع، لتنطلق في ميدان بث العواطف عبر استعارة الإجراء الموروث في الغزل وأحواله، وما يصنعه في الإنسان، مما عهدناه في الرجل، إذ إنه الذي يذكر في مقدماته الغزلية ما هو مخفي، وينشر ما هو مطوي في تجاويف القلب المثقل بالحب والبعد، وهو ما استعارته العجفاء لدى وصولها إلى الأندلس إذ قالت:

برح الخفاء فأيما بك تكتم	ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمن من عزيز قلبه	يا قلب إنك بالحسان لمغرم
يا ليت أنك يا حسام بأرضنا	تلقي المراسي طائعاً وتخيّم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه	ونكون إخواناً فماذا تنقم[1]

لم تستطع هذه البيئة الجديدة أن تخفي مشاعرها تجاه حبيبها الذي خلَّفتْه وراءها، تتمنى أن يكون بأرضها التي صارت فيها، وهي مشاعر صادقة، فأنى للمرأة عامة أن تنال رغبتها ممن تحب، وأنى ذلك لجارية، لا تملك قرارها في تنقل أو استقرار أو فراش، كما أننا نستشف من استعارة الإجراءات الفنية في شعرها عاملاً آخر من العوامل التي تدل على الحريات في الأندلس (فتذوق لذة عيشنا ونعيمه)، ولأن الحبيب لا يسمعها، فإنها تفترض سماعه، وتفترض إجابته عن سماعها، مما درج الشعراء على اتباعه في الإجراءات الفنية التي استعارتها الأندلسية في التموضع الجديد، فلم تكتف ببث لواعجها، بل تتحدث عنه أنه علق بها وما يتبع ذلك من مجريات ألصق بالرجل، لكنها هنا ملصقات ذكورية على لسان شاعرة:

بيد الذي شغف الفؤاد بكم	تفريج ما ألقى من الهم
فاستيقني أن قد كلفت بكم	ثم افعلي ما شئت عن علمِ
قد كان صرم في الممات لنا	فعجلت قبل الموت بالصرم

بل إن المرأة الأندلسية استعارت إجراءات العذريين في التموضع الجديد، فكما أن مجنون ليلى تبدت له الظباء فذكَّرتْه بليلى، إن الحال نفسه مع الأندلسيات النسويات، بل إن مظاهر الطبيعة التي اعتاد الشعراء أن يوظفوها في حمل مشاعرهم، نراها ترفد

[1] الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (356هـ)، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ج4، ص 113

المشاعر العاطفية النسوية في فنيات الاستعارة للإجراءات الغزلية، فابنة زياد المؤدب استعارت الإجراءات الفنية من العذريين:

أباح الدمع أسراري بوادي   بـه للحسن آثار بوادي
ومن بين الظباء مهاة رُملٍ   تبدت لي وقد ملكت قيادي
إذا أسدلت ذوائبها عليها   رأيت الصبح أسرة في الدآدي
تخال البدر مات له خليل   فمن حزن تسربل بالحداد
لها لحظ ترقّده لأمر   وذاك الأمر يمنعني رقادي[1]

كما أن الفنيات المستعارة من الإجراءات الشعرية عند الذكور لم تقتصر على حمل مشاعرهم في إسقاطات الطبيعة والظباء، بل إن المرأة الأندلسية استعارت أوصاف المرأة لتسقطها على الرجل في بث عاطفتها النسوية، فالاختيال والتمنع والتكبر والغرور صفات محبوبة في المرأة، إلا أن النسوية الأندلسية عبر إجراءات التموضع الجديد، استعارتها لها لتكون على الرجل، وهو ما صنعته الشاعرة حفصة بنت حمدون، فقد استظهرت عاطفتها النسوية في التموضع الجديد، من خلال صورة المتكبر المزهو:

لي حبيب لا ينثني لعتاب   وإذا ما تركته زاد تيهاً
قال لي هل رأيت لي من شبيه   قلت: أيضاً وهل ترى لي[2]

فالتموضع الجديد لم يخل من بصمات أندلسية للنسوية، إذ إن تكبره لا شك سيقابَل بتكبر، في حين أننا كنا نراه من الرجل مقابَلاً بالرضا فطلب المزيد من التكبر.

3. 2 الارتكاز الأندلسي في التموضع الجديد:

استعارت المرأة الأندلسية في بث لواعجها وعواطفها النسوية إجراءات العذريين من الرجال، وحذت حذوهم في التماهي مع الطبيعة والتبرم من آلام الحب، وإن كانت لها بعض البصمات التي تميز نسوية الأدب في تجلياته الإجرائية، غير أن البصمة الأندلسية أثبتت حضورها بقوة في هذا التموضع الجديد للعاطفة النسوية.

بلغت العاطفة النسوية في التموضع الجديد درجة عالية في تبادل الأطراف لمهمات الإرسال والتلقي في الحب، بدأت باتباع مقتضيات الاستعارات الإجرائية ثم عززت هذه الاستعارات بالفيض الجامع إلى أن يكون الرجل غاية المرأة في قضاء وطرها من هواه:

نظري قد جنى عليّ ذنوباً   كيف مما جنته عيني اعتذاري
يا لقوم تعجبوا من غزال   جائر في محبتي وهو جاري
ليت لو كان لي إليه من سبيل   فأقضي من الهوى أوطاري[1]

---

[1] ابن دحية، عمر بن الحسن (633هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار العلم للجميع، بيروت، ص11

[2] المغرب في حلى المغرب، ج2، ص38

إن الأندلسية الشعرية في ارتكازها على التصعيد الانفتاحي للتموضع الجديد، جعل البصمة الأندلسية مميزة في التحلل من قيود كثيرة، فلوعة الحب ما تلبث أن تزيد، وبراح الشوق ما يبرح أن يفتك، عندها تتمنى الشاعرة الأندلسية لو أنها تحظى بخلوة تجتمع فيها بالحِب، لتشكو له، ويشكو لها، ليس الشكوى التي جعلتهم بعيدين، بل الشكوى من ألم الداخل الناتج عن فرط الحب وشاهق المعاناة:

ألا ليت شعري هل سبيل ... يُنَزَّه عنها سمعُ كلِّ مراقب

ويا عجباً أشتاق خلوةَ من غدا ... ومثواه ما بين الحشا

فالعجب كل العجب كيف تشتاق إلى من هو مستقر في أحشائها لا يفارقها![1]

وكذلك نرى البصمة الأندلسية الواضحة في التموضع الجديد، عند ولادة، فالزيارة إنما تكون من الرجل لمضارب المحبوبة، يسعى إليها، ويخشى افتضاح أمرهما، ينتظر رقاد السمار ليصل، أما ولادة في استعاراتها الفنية لإجراءات الغزلين، إنها تستبدل بالمرسل متلقياً، لتبادل المواقع:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي ... فإني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالشمس ... وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم

كما أن شعور الغيرة مطبوع في كل امرأة، إلا أنه عند النسوية الأندلسية له مزيته الخاصة، وهويته المحددة، فحين تغار الأندلسية لا ينفع مع غيرتها السكوت، وحين تتجمل، لا يفيد الإعراض مسرح جمالها، وهو ما عبَّرت عنه ولادة عندما لعبت نار الغيرة بقلبها؛ إذ التفت ابن زيدون في بعض اهتمامه إلى جاريتها، فتشعر ولادة وهي المرأةُ - المرأة الأندلسية على وجه الدقة- أنها قد أهينت، لتلعب الغيرة في قلبها، وتحدث عندها ردة فعل، لا تأبه معه أن ينقلب الحب إلى جفاء، وأن يصير الوصل إلى انقطاع، ولا ينفع ابن زيدون كذلك أي اعتذار منه يذكرها بالماضي الجميل[4]:

لو كنت تنصف في الهوى ما ... لم تهو جاريتي ولم تتخير

وتركت غصناً مثمراً بجماله ... وجنحت للغصن الذي لم يثمر

ولقد علمت بأنني بدر السما ... لكن ولعتَ لشقوتي

ومما زاد أوار الغيرة عند ولادة، لتتخذ الإجراءات هويتها الخاصة المختلفة عن غيرة المشرقية في عواطفها، أن عتبة، الجارية التي التفت إليها ابن زيدون، ليست بالجارية التي شاع نمطهن الفكري، بل إنها شاعرة، إنها في لفت انتباه ابن زيدون محض نسوية متحررة من القيود الاجتماعية:

---

[1] نفح الطيب، ج1، ص617

[2] المغرب في حلى المغرب، ج2، ص203

[3] نفح الطيب، ج4، ص206

[4] الربيعي، أحمد حاجم، غسق الشعر الأندلسي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2013، ص102

[5] نفح الطيب، ج4، ص205

أحبتنـــا إنـــي بلغــت مــؤملي   وســاعدني دهــري وواصــلني

وجـاء يهنينـي البشير بوصـله   فأعطيتـــه نفســـي وزدت لـــه

بل إن الهويـة الأندلسية للنسوية لم تمنـع المـرأة هنـاك من التصـريح بتعدد الحبيب، وهذا ما فعلته نزهون بنت أبي بكر الغرناطية، إذ قالت في وزير شغفها حباً:

حللـت أبـا بكـر محـلاً منعتـه   سـواك وهـل غيـر الحبيـب لـه

وإن كـان لـي كـم مـن حبيـب   يقدم أهل الحق حب أبي بكر

فصدرها لا يحل فيه غيره، وإن تعدد الحالُّون فله الصدارة!

إن استقراءً واسعاً لشعر الشواعر الأندلسيات في بث عواطفهن النسوية، يكشف عن جوانـب كثيـرة مـن الأنسـاق الاجتماعيـة، والأحـوال النفسـية، التـي كانـت عليهـا المـرأة الأندلسية عموماً، ولاسيما في تجليات تلك العواطف شعراً، فقد عكس قدراً كبيراً من أنماط التحرر التي شهدتها الأندلس عبر مختلف القرون.

الخاتمة:

أماط البحثُ اللثامَ عن الازدواجيـة النفسية عند الشـواعر الأندلسـيات، فـي التصـدير العاطفي الذي صدر عن عوامل عديدة، ولاسيما العامل البيئـي، والعامـل الاجتمـاعي، والعامل الذاتي للشواعر، إذ لم تعد المشاعر تنشطر نحو الغياب أو الدموع، بل صـارت تفيض على محمل الشعر، نابعة من الطبيعة النسائية في التعبير المتحرر من القيود، أو المتخفف منها.

كشف البحث في معالجات السياق الاجتماعي للنسوية الأندلسية عن عبقريـة المـرأة الأندلسـية؛ إذ زاوجـت بـين التـواري والتـدفق، وفرضـت شـعرها وأدبهـا علـى واقـع اجتمـاعي، متح من الماضـي شيئاً، ومـن الحاضـر شيئاً، ومـن ذكائهـا أشياء، إذ إنهـا أدركت الأبعاد ولاحظت السياق ورسمت الحدود وجسدت الأحاسيس، ولربما تجـاوزت الخطوط التي رسمتها، أو رسمها لها السياق الاجتماعي أو الديني.

كمـا أن التمـايز العـاطفي للنسـوية الأندلسـية لـم تشـق طريقـاً سـهلاً فـي تصـدير الأحاسيس، بل عملت المرأة على صنع سلاحها الخاص في بعض جوانـب التصـدير الـواعي للعواطـف الأنثويـة، فكـان مصـنوعاً لهـا، وحاولـت أن تشـذبه، فانهالـت علـى الإجراءات الفنية للغزلين من الرجال، تختط طريقهم، وتضيف لمسات نسوية خاصة.

وقد خلص البحث إلى أن العوامل الاجتماعية التي تمنع التدفق، لم تكن إلا محفزات قصوى لإظهار الرغبات النسوية والتدفق العاطفي، في تعبير واضح عن سخط المرأة الشـاعرة مـن اللامبـالاة تجاههـا، أو مـن ضـيق البوابـات المخصصـة لعبـور المشـاعر النسوية.

كمـا أظهـر البحـث العوامـل التطوريـة للتدفق المتنـوع، فـأغنى الرؤيـة الشـمولية لتلـك العوامـل التقليديـة التـي اقتنصـت حريتهـا، ولاسـيما فـي اشـتجار النسـوية الأندلسـية مـع

[1] الذخيرة، ق1. م1، ص431

المفاهيم المعاصرة في كثير منها، مثل التساوي، وعدم التمايز، والتصريح بالغيرة، وانقلاب الموازين لأجلها.

بيّن البحث أدوات النسوية الأندلسية في اعتماد السائد ليحمل روافد التشكل العاطفي، وكيفية اصطناع حوامل أخرى، قد يعف عنها الرجل.

لقد كسرت النسوية الأندلسية عقدة لولا، فصارت التجلي الأول لكل امرأة محصورة بلولا، انطلاقاً من التموضع الجديد للمجتمع، والتموضع المشابه للمرأة فيه، إلا أنها لم تصدر عن نسق واحد، بل تناوبت أنماط التصدير تبعاً لاختلاف عوامل الانبعاث، الأمر الذي أحال إلى معطيات نسوية معاصرة، في اختلاف معايير الرؤيا لاختلاف مواقف الشخص نفسه.

ومن أهم ما توصل إليه البحث، تلك المقاربات التي استوحاها من المراوحة بين التدفق والانزواء الذي يتوارى عن أعين المجتمع، كيف أنها كانت المؤشراتِ الحقيقيةَ لأحوال العواطف النسائية، لأن العثور على اتجاه واحد في إنسان واحد أمر شاق، والبحث عن حال واحدة فيه أصعب، أما النسوية الأندلسية فقد وضعتْ بتراوحها مؤشراتٍ صادقةً دالة على الإنسان والمرأة، قبل كل شيء.

وإن البحث في هذا المضمار ما زال ينتظر كثيراً من الجهود التي ستكشف عن جوانب نسوية بإجراءات أفدنا فيها من العلوم المعاصرة، وما زالت تنتظر إجراءات أخرى.

المصادر والمراجع:

– ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (ت 776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1976

– ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن (ت633هـ). المطرب من أشعار أهل المغرب. تح: إبراهيم الأبياري. بيروت: دار العلم للجميع، 1955.

– ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى المغربي (ت685هـ). المغرب في حلى المغرب. تحقيق: شوقي ضيف. القاهرة: دار المعارف، 1955.

– الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (356هـ)، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت.

– بوفلاقة، سعد، رسالة الشعر النسوي الأندلسي في القرن الخامس الهجري، جامعة عنابة، 1986

– الداية، محمد رضوان، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000

– الربيعي، أحمد حاجم، القصص القرآني في الشعر الأندلسي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001

– الربيعي، أحمد حاجم، صورة الرجل في شعر المرأة الأندلسية، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2013

– الربيعي، أحمد حاجم، غسق الشعر الأندلسي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2013
– الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، 1970
– السعيد، محمد مجيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، مطابع الرسالة، الكويت، 1980
– السويفي، مصطفى، تاريخ الأدب الأندلسي، دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع.
–
– الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 2000
– شلبي، سعد إسماعيل، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1973
– الشنتريني، علي بن بسام (ت 542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، 1997
– عابدين، عبد المجيد، دراسة تحليلية نقدية لنماذج من الشعر الأندلسي، دار الكتاب العربي، بيروت.
– عباسة، محمد، حب الآخر في الشعر الأندلسي والبروفنسي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد الرابع، 2005
– العقيلي، فوزية عبد الله، الرؤية الذاتية في شعر المرأة الأندلسية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، 2000
– التلمساني، أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
– مكي، الطاهر أحمد، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، دار المعارف، القاهرة، 1981